هل لنا شركـــــــة في الفداء؟

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٨

www.coptology.org

هل لنا شركة في الفداء؟

لم تنتظر منابر الذين لا حس لهم، ولا شعور حتى تجف دماء الشهيد الأنبا أبيفانيوس الذي قُتِلَ غدراً بجريمة وحشية تُعبِّر عن كراهية شيطانية، فانطلقت -بغير حق، بل زوراً وبهتاناً- تسفِّه وتهدم إنساناً سُرقت حياته وهو في قمة العطاء والمساهمة في التنوير الذي بدأه الأرشيدياكون حبيب جرجس، ودفعه الأب متى المسكين إلى الأمام بالعودة إلى آباء الكنيسة، مدعيةً عليه ما لم يقله، بل ما لا يمكن لعاقل على صلةٍ بالإيمان المسيحي ومحتواه المسلم لنا من القديسين أن يفكر فيه. فقد نشر نيافته، متخفياً تحت اسم "مسيحي أرثوذكسي" مقالاً -لا علاقة له بالمسيحية أو الأرثوذكسية- بعنوان: "الرد على تعليم غير مستقيم ضد الفداء للأسقف أبيفانيوس رئيس دير القديس مكاريوس الكبير، بدعة اشتراك البشر في الفداء"، لم يورد فيه مرةً واحدة عبارة واحدة -للراحل الكريم- يقول فيها باشتراك البشر في الفداء، لكنه إمعانا في الحقد وإذكاءً للانقسام يستعير هذا العنوان من محاضرة للأنبا شنودة الثالث يتهم فيها القمص متى المسكين -زوراً وبهتاناً وليّاً لعنق الكلام واصطناعاً للأخطاء وتزويراً للإيمان المسيحي- بأنه يقول باشتراك البشر في آلام المسيح الفادية!!

يبدو أنهم لم يحتملوا أن يصير الرجل شعلةَ نورٍ تضيء لعددٍ من شباب وشابات الكنيسة، فيعيدون بثَّ أشعتها في أرجاءها، فتكشف زيفهم وتُظهرهم على حقيقتهم ذئاباً خاطفة، وإن تزيُّوا بفراء الحملان. ودون أن يكون لنا تواصل شخصي مع هؤلاء الشباب سوى الدراسات والمقالات، كان لهم نفس الحنين إلى استدعاء آباء الكنيسة الذين كنا نسمع أسماءهم في مجمع التسبحة السنوية وفي القداسات، ليقودوا الكنيسة في هذا الظرف كما سبق لهم أن قادوا الكنيسة الجامعة في أخطر مراحل سيرها، وكنا نتساءل عن مؤلفات هؤلاء الآباء. وبالرغم من أن هذه الكتابات قد جاءت إلينا أولاً باللغات

الأوروبية، إلا أن اكتشاف الأصول اليونانية، كان بمثابة موجة عارمة دفعها حب اكتشاف حقائق الإيمان والارتباط العضوي بأم الشهداء.

مزج الفكاهة بالإيمان:

لا شك أن الأنبا شنودة الثالث كان يملك روح الدعابة والقدرة على التواصل مع الجماهير. كان صورةً جديدةً لبابا الإسكندرية الذي لم يكن يحتجب ويختفي. لذلك فإن المدقق المحايد لن يجد في ردوده التي نُشِرت على ما تصور أنه بِدع أو أخطاء، سوى فكاهات بلا تاريخ، ونوعٍ من الدعابة التي تحولت في عقول السامعين إلى حقائق إيمانية، عُرِفت بعد نياحته باسم "تعليم البابا شنودة"!!

وإذا كان التعليم هو تقرير وعرض حقائق لا تقديم أسئلة استنكارية تضرب جذور أو أساسات الإيمان، فالسؤال الذي يفرض نفسه هو كيف تحول الهَذَرُ إلى تعليم؟

أليس من قبيل السخرية والدعابة أن يسأل: هل تسجد الكنيسة لنفسها، أو تأكل نفسها عندما نصلي: نسجد لجسدك المقدس؟

وهل أجاب الأنبا شنودة، ولو مرة واحدة على ما طرحه من الأسئلة الاستنكارية التي كان يطلقها في محاضراته ويحشدها في مقالات الكرازة، والتي نُشرت بعد ذلك في كتاب "بدع حديثة"؟ فيما يخص موضوعنا، سأل مستنكراً هاذراً: "هل أخذ الرب جسد يهوذا وبيلاطس ..."؟ دون أن يعلم أن سؤاله هذا إنما يضرب أساس تجسد الكلمة الذي صار "آدم الثاني، أو آدم الأخير" حسب تعبير بولس الرسول نفسه؛ لأنه إذا لم يكن الرب يسوع قد أخذ جسد الإنسانية، لا جسد فردٍ أو شخصٍ واحدٍ، فكيف إذن تم فداء البشر؟ ألم يكن يعلم أن الفداء ليس من أجل أفراد، بل من أجل كل البشر؟!

وفي مقالته "كيف تم فداء البشر؟" يذكر قداسته أن بولس الرسول لم يكن قد آمن بالرب عندما صُلب الرب. هذا صحيح، وتلك حقيقة بيولوجية، ولكنها ليست

حقيقة استعلان الخلقة الجديدة، وإلا فكيف -كما يذكر قداسته- كتب بولس أنه صُلب مع المسيح (غلا ٢: ٢٠)؟ ولكن يبدو أن قداسته قد نسى بقية الاعتراف الرسولي: "فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" (غلا ٢: ٢٠). والإيمان هو ما ذكره بولس نفسه: "إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي"، والإيمان ليس قفزاً فوق التاريخ؛ لأن الزمان هو عنصر جوهري في الخلقة القديمة، ولكن "ملء الزمان" قد تم، لأن الرب نفسه قال بعد أن هزم الشيطان في البرية: "قد كمل الزمان واقترب ملكوت السموات، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (مرقس ١: ١٥). فإن كان للزمان قدرة على أن يفصل بيننا وبين المسيح، فكيف قال الرب نفسه: "ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر" (متى ٢٨: ٢٠)؟ وإن كان المسيح رب المجد "لم يسلِّم جسده في العلية، بل سلَّم رمزاً"، بحسب ما ورد في كتاب قداسته "تأملات في أسبوع الآلام، ٥ كتب"، وأن الفداء تم يوم الجمعة، مصدقاً على ما يقول به المذهب الإنجيلي المشيخي، وإن كان الزمان يستطيع أن يفصل ما حدث في العلية، حيث سلم الرب جسده، عن حقيقة استعلان تقديم الرب قربانَ محبةٍ، فما معنى أن نردد ما حدث في العلية في كل القداسات الأرثوذكسية، وهو ما سُلِّم إلينا، بل ما كتبه بولس بنفسه: "لأنني تسلَّمت من الرب ما سلَّمتكم أيضاً" (١كو ١١: ٢٣)؟ لأن التسليم، وإن كان يتم بواسطة أشخاصٍ، فهو عودة كل الأشخاص إلى الرب نفسه الكائن والحاضر دائماً في وسط جماعته، وهذه ليست فكرة في عقولنا، بل هي الحقيقة التي يعود إليها الوعي بالاعتراف وبالصلاة.

كيف اشتركنا في الفداء؟

إلى جوار الأسلوب الاستنكاري الهاذر، يمكنك عزيزي القارئ أن تلاحظ أن الأساس في كل ما كتبه قداسة البابا شنودة عن الفداء، والذي أعاد كتابته الأنبا بيشوي في كتابه "عقيدة الفداء والكفارة"، لا يخرج عن دائرة تشفي الآب وإشباع رغبته في عقوبة الابن المصلوب لأجل خلاصنا!! .. الأول جعل الرب يسوع ذاته يتحول إلى رماد، فيتنسم الآب رائحة الرضا، والثاني جعل الجلدات الحارقة هي سبب الخلاص والفداء،

وهو ما جعل كلاهما يردد ذات العبارات والألفاظ: إن المسيح وحده مات لفداء البشر، فقد صُلب وحده، ومات وحده، وهنا تصبح عبارة "مات لأجلنا – أو مات عنا" هي الأساس الواحد الذي يجعل كلاهما يتهم كاتب هذه السطور والأب متى المسكين ونيافة الأنبا أبيفانيوس ببدعة لا وجود لها إلا في عقليهما معاً، وفي عقول كتائب الأنبا بيشوي من أتباعه الذين يحصلون على مرتبات من أسقفية الشباب، والمركز الثقافي القبطي، ومطرانية كفر الشيخ ودمياط.

ولكن يبقى السؤال الجوهري: ما هي علاقتنا نحن بالمصلوب والحي معاً الإله المتجسد؟

١- لقد غاب عن قصدٍ أو عن جهل، الحديث والكتابة عن شركتنا في آلام المسيح، فبعد أن اعترف رسول الرب بالإيمان وتحوله من الشريعة إلى نعمة الإنجيل، وبعد أن سرد حياته الماضية وقرر أنها "نفاية" (فيلبي ٣: ٨)، كتب:

"لكي أُوجد فيه (المسيح)".

ولم يكتفِ، بل زاد: "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته" (فيلبي ٣: ١١)، فهل يمكن لنا -بناءً على ذلك- أن نقول إن بولس كان شريكاً في الفداء، وأنه دفع الثمن للآب إرضاءً للعدل الإلهي، تلك الفكرة المزيفة التي وصلتنا من أنسلم، مروراً بأوجين دي بليسي، واستقراراً عند الأنبا شنودة والأنبا بيشوي؟

طبعاً الإجابة بالنفي، ولكن شركة بولس مثلها مثل شركتنا نحن أيضاً في دم المسيح (١ كور ١٠: ١٦)، هي شركة الكأس، وشركة الجسد في سر الشكر، وبالتالي لم يعد جسد المسيح خاصاً به وحده حسب تزييف شرير يقال عن جهل، بل جسده الذاتي الواهب الحياة للعالم طبقاً لخطاب الرب في (يو ٦: ٣٣ – ٦٥)، وأننا "إن لم نأكل جسد ابن الإنسان ونشرب دمه، فليس لنا حياة فينا، أي حياة ذاتية" (يو ٦: ٥٣)، ولكن بسبب سر الشركة، أصبحت لنا حياة أبدية وقيامة أبدية هي قيامة الرب نفسه، وهو ما

جعل الرسول يكتب: "لأعرفه وقوة قيامته".

وبالتالي فإن فكرة البديل العقابي، وهو تعبير لم يرد بالمرة لا في صلواتنا ولا في العهد الجديد ولا عند الآباء، بل يحاول نيافة الأنبا رافائيل أن يفرضه عنوةً على أثناسيوس، هي فكرة تدمِّر بكل وضوح العلاقة بيننا وبين المصلوب الحي؛ لأننا لا نزلنا نرتل "المسيح قام من الأموات بالموت داس الموت"، ولم يكن الموت الذي ماته المسيح هو موتٌ خاصٌّ به، بل خاصٌّ بنا نحن البشر حسب الاعتراف: "هذا الذي من أجلنا نزل من السماء وتجسد .. وصلب .. وقام"، وهو ما نرتله في قانون الإيمان.

٢- كما أن القول بأن دم المسيح دُفِع للآب ثمناً لخطايا البشر، ليس إلا محاولة لإبعادنا عن المسيح، ليس لأننا ندفع مع المسيح حسب ادعاء الجهل، بل لأن معموديتنا ومسحنا بالمسحة الإلهية، صرنا الهيكل الجديد الأعظم من هيكل سليمان؛ لأن الله لم يعد يسكن في بيوت من الحجارة (راجع أع ٧: ٤٨ - ٥٠)، بل يحيا فينا بالابن في الروح القدس.

فالمسيح ليس خبزاً فقط، بل هو الخبز الحي (يو ٦: ٥١)، وكما أنه حيٌّ بالآب "فمن يأكلني يحيا بي" (يو ٦: ٥٧)، وبالتالي فقد صرنا -بالمسيح- "أحياء لله" (رو ٦: ١١)، ولأننا في المسيح لا نعيش لأنفسنا، بل للمسيح الذي مات من أجلنا وقام (٢ كور ٥: ١٥).

هل هذه هي كلمات الأنبا أبيفانيوس، أم كلمات رسول المسيح: "قدموا أجسادكم ذبيحة حيَّةً ..." (رو ١٢: ١)، فهل يجوز -إلا عند الذين يحاولون قطع الشركة التي بيننا وبين الرب- أن نكون غير ذلك؟ ولكن مداً لمنطق الجهل على استقامته، فقد يسأل الجاهل: هل حلت ذبائح حياتنا محل ذبيحة الرب؟ حاشا؛ لأن الرب جاء لأجل أن تكون لنا حياة وافرة به (يو ٥: ٤). ألا يصرخ رسول الرب: "نحن الأحياء نسلَّم للموت من أجل يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت" (٢كور ٤: ١١). فهل توقف دعاة الكراهية والنبذ والتقسيم أمام هذا التعبير: "حياة يسوع"؟

أليس ما ذكره رسول المسيح هو الرد الواجب والصارم أيضاً: "مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ" (غلا ٢: ٢٠).

وفي ضـوء ما ذكرناه هل يمكن أن يكون اعتراض الأنبا شـنودة على أن بولس لم يكن موجوداً عندما صُلِبَ المسيح، اعتراضاً لاهوتياً حقيقياً؟

وعندما يسـأل الأنبا شـنودة: مَن مِن المؤمنين كان موجوداً سـاعة صـلب الرب على الصليب؟ لا أحد، فهل يجوز أن تُكتَب هذه الكلمات التي تقطع شركتنا في المسيح لمجرد أن شرح غلاطية للأب متى المسكين لم يعجب الأنبا شنودة وتلاميذه؟

وكيف يتفق ما كتبه اثناهما مع كلمات الرسـول: "فما أحياه في الجسـد (الآن) فإنما أحياه في الإيمان (ليس بحذف التاريخ أو القفز فوقه، بل بامتداد قوة وعمل المصلوب القائم من الأموات لنا نحن) إيمان ابن الله الذي أحبني وأسـلم نفسـه لأجلي" (فيلبي ٣: ٨)؟

ما هو هذا الإيمان؟

الإيمان بالله الآب كآب لنا أرسل روح الابن إلى قلوبنا صـارخاً: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤ – ٦).

إيمان من قال إن حبة الحنطة إن لم تقع في الأرض وتموت، فهي تبقى وحدها، فقد سـبق للرب أن قال: "الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتموت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمرٍ كثير"، ثم شـدد الرب: "من يحب نفسـه يهلكها (يقدمها ذبيحة) ومن يبغض نفسـه (لأنه حمل الصـليب وأنكر وجوده الخاص المسـتقل) في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية .. وحيث أكون أنا يكون خادمي" (يو ١٢: ٢٤ – ٢٩).

الخلقة الجديدة عندما مات الكل فيه (٢كور ٥: ١٥)

يسير أصحاب مدرسة الفصل والتقسيم -متوهمين- بخطىً واسعة لهدم الإيمان، وتدمير الأساس الذي لا يمكن تدميره، غير مدركين أنهم إنما يدمرون أنفسهم.

كتب رسول الرب: "محبة المسيح تحصرنا

إن كان واحد مات لأجل الجميع

فالجميع إذن ماتوا

هو مات لأجل الجميع

لكي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم

بل للذي مات لأجلهم وقام".

كيف مات الجميع كما شرح أثناسيوس الرسول بحق:

"موت الجميع تم في جسد الرب" (تجسد الكلمة ٢٠: ٥).

وعن إبادة الموت والفساد يقول: "أُبيدا من الجسد بفضل اتحاد الكلمة به. فقد كان الموت حتمياً" (تجسد الكلمة ٢٠: ٤).

ولأن الكلمة غير مائت وأخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، ففي هذا الجسد تمت إبادة الموت (عب ٢: ١٤)" (تجسد الكلمة ٢٠: ٦).

وقبل ذلك في الفصل الثامن من تجسد الكلمة: "من أجل محبته للبشر بذل جسده للموت عن الجميع أولاً: **لكي إذا كان الجميع قد ماتوا فيه**، فإنه يُبطِل عن البشر شريعة الموت والفناء لأن سلطان الموت قد استُنفِذَ في جسد الرب ..." (٨: ٤).

لقـد تم الحكم في الكـل في الرب لكي نتحرر نحن، وفي الرب لكي لا يبقى للموت سلطانٌ علينا لأن الرب أعادنا إلى الحياة ولم يكن الموت وحده هو طريق الخلاص، بل الموت والقيامة واتحاد ألوهية الكلمة بنا، أي بالناســـوت مما جعل موت الرب وقيامته هو موتنا وتحريرنا نحن.

حقاً إن كان أحدٌ في المسيح، فهو يعرف شـريعة الحياة، أي "شـريعة روح الحياة في المسـيح" (رو ٨: ٢)، وهي شـريعة تعود إلى التجسـد والصـلب والقيامة والصـعود، أساسات التدبير التي جعلت من الرب رأس الجسد الواحد الكنيسة.

فمن الرأس "الذي منه كل الجسد بمفاصل ورُبط متوازراً ومقترناً ينمو نمواً من الله" (كولوسي ٢: ١٩)، وهكذا بسر الانضمام للجسد، ومن الرأس الواحد يسوع، يجمعنا الروح القدس "بروحٍ واحد اعتمدنا إلى جســـد واحد .." (١كو ١٢: ١٣). وفي ســـر المعمودية ومسحة الروح القدس وشركتنا في جسد الرب ودمه لا نعود إلى أحداث تاريخية فقط، بل يعود بنا الرب نفســه إلى ما حدث له من معمودية وصــلب وقيامة لكي نموت معه ونُصلب معه وندفن معه ونقوم معه لكي تعود إلينا الحياة الجديدة، وهي ليست عودة بالعقل والوعي وحده، بل عودة الكيان الإنسـاني كله إلى مصدر وواهب الحياة ربنا يسوع المسيح الذي يعمل كل هذه فينا بالروح القدس لا حسـب الذكاء الانسـاني بل حسـب روح الحياة "الرب المحيي".

تُرى هل كان الأنبا أبيفانيوس قد هرطق عندما أعاد التعليم الرسولي؟ أم أن منابر الصـغار التي لا تراعي الحس والآداب المصـرية، ناهيك عن الآداب المسـيحية التي تشـعر وتشــارك في آلام وأحزان وأفراح الغير، أم أن الاتهام بالهرطقة موجَّهٌ لبولس الرســول، ومن قبله المسيح يسوع ربنا — وأصبح كل من اعتمد ليسوع واعتمد لموته وقيامته هرطوقي لأنه يتبع مؤسس هرطقة، وهو يسوع المسيح نفسه (راجع رو ٦: ١-٨)؟

حاشـــا لنا أن نقول للراعي الصـــالح ربنا إنك أخطأت عندما وهبت لنا حياة جديدة أبدية، لا حياة أبدية مخلوقة حسب ادعاء المطران الأنبا بيشوي، الذي لا يجد من

يرد على مزاعمه من الإكليروس الصامت، في حين أن الذي سكت كان هو الصوت الوحيد القادر على الرد برصانة المؤرخ والعالم اللاهوتي الأب الأنبا ابيفانيوس الذي حرَّض عليه المطران في قائمة الـ ٢٠ بالاسم والصورة، وكان الأول في القائمة، ورحل إلى الثالوث مصدر الحياة مؤسس الكنيسة وواهب كل رباط مع وفي الابن بالروح القدس.

د. جورج حبيب بباوي